A. صورة أولية عن جغرافية بلدان الشرق الأدنى

إن الأرض والمناخ. . . يطبعان الأعراق والشعوب بالسمات التي تميزها في تكوينها بعضها عن بعض. . . فالمشاهد الطبيعية تصهر نفسية الشعوب. وهي نفسها التي تمنحها خصوصياتها القومية الثابتة.

(و. شوبار. أوروبا وروح الشرق ص ١٣)

I. الجغرافية عامل أساسي في التاريخ

يفيدنا العلم الحديث بأن كل أحداث التاريخ تنجم عن تأثير الأوضاع الطبيعية على الناس وتأثير الناس بدورهم على الطبيعة. إن الجغرافية العلمية المعروفة بالجغرافية البشرية «تخضع إذن دون جدال إلى التركيب التاريخي»، وأن المكان الذي تعيش فيه المجموعات الاجتماعية إنما هو عامل جوهري وسند للتاريخ.

لذا فإن التاريخ الحديث الذي يبحث عن تفسير للماضي يعتبر دراسة البيئة الجغرافية حيث يعيش شعب ما، على أنها من الأمور التي لا بد منها من أجل اكتشاف تأثير الأوضاع الطبيعية على تكوين هذا الشعب وتطوره التاريخي.

١ ـ البيئة الجغرافية والجماعة الإثنية أو الشعب.

أ ـ تأثير الانسان والبيئة

يُجمع اليوم كل علماء الحياوة على الإقرار بأن «للوراثة والبيئة دوراً مشتركاً في تكوين كل شخصية حيّة». وان الفعل المشترك لهذين العاملين يحدد مجموعة الطبائع البشرية، الجسدية منها والنفسية، الفردية والجماعية على السواء.

وفي إطار هذا الفعل أو التأثير المزدوج للإنسان والطبيعة، فإن دور المبادرة البشرية، على أهميته، يبدو بالضرورة متغيراً وعارضاً نسبياً، فالتغييرات التي يحدثها الانسان في الإطار الطبيعي تتطلب للحفاظ على ديمومتها استمرارية في الجهود، مما يعجز النشاط البشري، الخاضع لقانون الاستنزاف والتلف عن متابعتها بطريقة متكافئة ودائمة. ومن جهة أخرى فإن هذا النشاط الذي تدعمه أو تعوقه التأثيرات الخارجية يصطدم غالباً بأوضاع مقيدة، ضاغطة تجعل دوره هامشياً.

وأما تأثير البيئة الجغرافية وهو أقوى وأكثر تواصلاً بفعل استمرار الأوضاع الطبيعية نسبياً، فيشكل عاملاً ثابتاً وأساسياً. إن أوضاع البيئة الجغرافية التي تضع

الحدود والعراقيل أمام نشاط البشر تؤثر في قولبة وتعديل بل وحتى تغيير الطبائع الجسدية والنفسية.

إن العلم الحديث يعلمنا بالفعل ان طاقات التأقلم لدى الإنسان هي غير محدودة. ان البشرية تخضع للحالات الطبيعية التي تسيطر عليها، كي «تؤمن لأجسادها الصَون والعناية اللازمة، ولطاقاتها النمو والتطور». «إن المناخ والأرض والغذاء لهي ذات تأثير جسدي ـ نفسي مباشر، وقد يكون للمناظر الطبيعية تأثيرها أيضاً. . . وبطريقة غير مباشرة فإن أسلوب العيش الذي تمليه البيئة يؤثر على تكوين الطبع»[1].

هكذا فإن المناطق الحارة أو الباردة، الجبل والسهل والصحراء. . . تكوّن وفقاً لكل منها أنماطاً إنسانية مختلفة. ولا بد من الملاحظة هنا أن تأثير البيئة الجغرافية ليس الأقوى تماماً وأن فعله الحاسم، الجازم ليس هو نفسه في كل مكان. «فهناك بيئات يتفاوت أثرها عمقاً وثباتاً»[2]، بينما نشهد بيئات أخرى يتلاشى فيها طابع المنطقة فلا أثر له يُذكر.

ب ـ البيئات الجغرافية المتباينة والمجموعات البشرية المتميزة.

إن البيئة الجغرافية المتفردة الى حدّ ماءتسهل نشوء مجموعة بشرية متجانسة نسبياً وذلك بوسمها الأفراد الذين يؤلفونها بتكاوين عامة متشابهة نوعاً ما ودائمة نسبيا. وعندما يكون «العالم ـ الإطار أقوى من الشعب الذي يعيش فيه فإن هذا الشعب يصيبه ما يصيب الفرد: فإنه يتكيف لا خارجياً وحسب بل داخلياً مع بيئته»[3].

هكذا فإن البيئات المختلفة من حيث الطبيعة تؤدي إلى نشوء مجموعات بشرية مختلفة إثنياً. «ان التوزيع الإجمالي لمختلف الأعراق التي تؤلف اليوم الجنس البشري هو مرتبط ارتباطاً واضحاً بالجغرافية الحالية»[4].

إن التقسيمات الكبيرة منها والجزئية لجغرافية الكرة الأرضية تقابلها أعراق ومجموعات بشرية مختلفة مقسمة بدورها إلى عرق تحتي أو مجموعات إثنية متميزة. وأما على صعيد القارات ككل، فإن هذه التقسيمات الجغرافية أدت إلى قيام أعراق بشرية مختلفة من حيث ألوان البَشَرة. «الرجل الأبيض في أوروبا والأسود في أفريقيا

1 H. Berr, *La Synthèse en histoire*, p. 89.
2 H. Berr, *La Synthèse en histoire*, p. 96.
3 H. de Keyserling, *Analyse spectrale de l'Europe*, p. 222.
4 E. Cavaignac, *Histoire du monde, Prolégomènes*, p. 277.

والأصفر في آسية والأحمر في أميركا وكلهم ليسوا إلا الانسان ذاته وقد طُلي بلون المناخ»[5].

وفي داخل المساحات القارية عملت التقسيمات الجغرافية العديدة الكبرى منها والفرعية على نشوء مجموعات إثنية عديدة متميزة نسبياً فيما بينها. ففي إطار العرق الأبيض ـ الشرق الأدنى، أوروبا، أفريقيا الشمالية، «فإن علماء الأصول الإثنية قد ميزوا ثلاثة أعراق فرعية (المتوسطيون، الألبيون والشماليون) والتي يشكل مكان عيشها، بالرغم من التنقلات الجانبية، نوعا من الثبات منذ عصور ما قبل التاريخ»[6].

إن عِرق أو أسرة الساميين الأولين، أسلاف أو أجداد البدو الحاليين، كانت تعيش في حالة البداوة في سهوب شبه الجزيرة العربية. وبخروجها من تلك المنطقة القاحلة واستقرارها في المناطق المختلفة المزروعة في سورية ـ بلاد ما بين النهرين، تفرعت تلك الأسرة في العصور القديمة إلى مجموعات إثنية أو شعوب مختلفة كل الإختلاف مثل الكنعانيين والبابليين والفينيقيين والأشوريين والآراميين والعبرانيين والعرب... وهذا ما حصل أيضاً في اوراسيا من تفرع للأسرة الكبيرة أو عرق الآريين الأولين.

ج ـ المجموعات البشرية (أعراق، شعوب، أمم)، خلائط إثنية مستقرة

إن العرق الخالص الصافي جسدياً، وهو تركيب كيفي لعلم الانسان، هو غير قائم عملياً. فهذه الأنواع من الأعراق قد انقرضت منذ أزمنة ما قبل التاريخ نتيجة الاختلاطات الإثنية (العرقية) الحاصلة بسبب التنقلات والتهجين. وإننا نجد لدى الشعوب المعتدة على أنها من الجماعات النقية من الناحية العرقية، كبدو الصحراء العربية مثلاً مميزات جسدية في القبيلة نفسها والأسرة نفسها وحتى في الشخص نفسه، مختصة بأعراق مختلفة من الناحية الإنسانية.

إن ما نعنيه اليوم بكلمة عرق إن هو إلا مجموعات مختلطة من الناحية العرقية، أو «مزائج مركزة» أو أعراق فرعية «مصنعة» أي مجموعات جغرافية (قبائل، شعوب قديمة، أمم حديثة) نتج أفرادها من تهجين أعراق، أو أعراق فرعية متنوعة، وقد تقولبوا

5 Buffon, cité par Lester et Millot. *Les races humaines*, p. 191.
6 Cavaignac, *op. cit.*, p. 279.

وتكيفوا جسدياً وبالأخص نفسياً تحت تأثير الوراثة والبيئة الجغرافية معاً. إن الأعراق الخالصة الأصلية،في تمازجها مع السكان الأصليين للبلدان المختلفة حيث تستقر فإنها «تتفتت وتتضاعف إلى أعراق تاريخية أو مجموعات إثنية، وإن المجموعات الإثنية تختلط وتتحول في الشعوب والامم»[7].

٢ ـ البلد والشعب أو الأمة الجغرافية

إن ما يميز شعباً أو أمة ما بشكل عام وفي المفهوم التاريخي ويسهم في إعطائه شخصية جماعية متميزة عضوية اجتماعية ووطنية إنما هو «إتحاده» الوثيق مع البيئة الجغرافية حيث يعيش. الأمة هي روح،والأرض التي تعيش عليها تؤلف نوعاً ما غلافها الجسدي. «وبين الأرض والشعب الذي يقيم عليها... تنشأ شيئاً فشيئاً علاقات متبادلة تكون أكثر عدداً وتشابكاً كلما طال استقرار هذا الشعب في البلد زمناً أكبر»[8].

إن هذه الفردية المعقدة، المؤلفة في الوقت نفسه من بيئة جغرافية أو بلد متفرد نسبياً ومن مجموعة بشرية مركبة متفاوتة الاستقرار والتجانس هي الأمة الجغرافية أو التاريخية بخصائصها الأساسية الخاصة او «القومية».

أ ـ البيئة الجغرافية المتفردة: منطقة طبيعية ومنطقة تاريخية

إن البيئات الجغرافية المتفردة التي تساعد على نشوء مجموعات إثنية أو شعوب وتطورها،وتسهم في تحديد طبائعها الاساسية تندرج في نوعين من الوحدة الجغرافية أو البلدان: المنطقة الطبيعية والمنطقة التاريخية. وكل من هاتين «هي قوة تجذب في فلكها دائرة النشاط البشري».

إن المناطق الطبيعية «هي وحدات واسعة نسبياً، وإنما كل أجزائها تتمتع بعدد معين من الطبائع المتشابهة أو المماثلة بعضاً ببعض: جيولوجياً، طوبوغرافياً أو مناخياً وإن هذه المناطق في مجموعها هي متجانسة أو تميل إلى ذلك. وهي تعتبر شرعياً وحدات طبيعية»[9].

أما المناطق التاريخية فتتشكل من مجموعة مناطق طبيعية متشابهة أو متباينة وإنما

7 H. Berr, *En marge de l'histoire universelle*, p. 96.
8 P. Valéry, *Regards sur le monde actuel*, p. 108-109.
9 Brunhes, *Géographie humaine, édition abrégée*, p. 262.

متكاملة. إن مساحة هذه المناطق كبيرة بعض الشيء، «ويعمل المناخ وعوامل متنوعة على جعلها متفردة نسبياً... وهي مركبة إلى حدّ ما، ونجدها تتألف من «وحدات طبيعية»[10]. إن طبيعتها غير متجانسة تحديداً إلا أنها تشكل وحدات إقتصادية ونفسية «وهي مكيفة بشكل وحدات سياسية بفعل الإرادات البشرية»[11].

ب ـ الأمة الجغرافية، حقيقة تاريخية ووحدة إجتماعية وسياسية.

إن الأمة الجغرافية في إطارها المادي، الطبيعي أو التاريخي والتي ليست عموماً إلا مزيجاً إثنياً مستقراً، تشكل وحدة نفسية حقيقية. «إن أعراقاً غريبة عن بعضها بعضاً تنتهي بالامتزاج اذا عاشت على الأرض نفسها في حين أن أعراقاً ذات قربى تصبح مختلفة أكثر فأكثر اذا عاشت على أراض مختلفة»[12]. لقد رأينا أن «الأعراق الانسانية الأصلية إذا استقرت في مناطق مختلفة تنقسم إلى أعراق تاريخية أو مجموعات إثنية» لتؤلف شعوباً أو أمماً. و«أن الأمم وسط تقاتلها تتداخل وتميل إلى أن تتحد في مجتمع... وأن الوحدة المادية، ان كانت قائمة، تستبدل شيئاً فشيئاً بالوحدة النفسية كما تستبدل وحدة التشابه بوحدة الشعور أو الوجدان»[13].

وفيما تسهم البيئة الجغرافية والعرق في تكوين شعب ما وتمييزه،إلا أن العناصر الأساسية التي تخص هذا العشب وتميزه عن غيره من الشعوب تتألف عامةً من الطبائع النفسية والخلقية الناجمة هي بدورها عن الوراثة والبيئة الطبيعية. إن هذه الطبائع النفسية، وهي فطرية أو غريزية، والتي هي دائمة مبدئياً، تدمغ بسمتها المجموعات الإثنية وهي «المحركات» الأساسية لنشاطاتها. «إن الطرح الأساسي لعلم النفس التاريخي لغوستاف لوبون والذي يقول إن الشعوب لا تُحكم بمؤسساتها بل بطبائعها إنما يعبر عن حقيقة جوهرية وعالمية»[14].

وأما الوحدة اللغوية، الدينية أو الثقافية المتصفة بتشابه في العناصر المكتسبة والخارجية فهي أبعد من أن تؤلف، بمفردها، وحدة حقيقية من الناحية النفسية، والحياوية، والوطنية أو الأجتماعية. إن هذه الأنواع من الوحدات تشكل عامةً ما نطلق عليه عادةً إسم «عالم»: العالم اللاتيني، العالم الانكلو ـ ساكسوني، العالم

10 H. Berr, *La Synthèse, en histoire*, p. 90-91.
11 Brunhes, *op. cit.*, p. 262.
12 W. Schubart, *L'Europe et l'âme de l'Orient*, p. 15.
13 H. Berr, *En marge de l'histoire universelle*, p. 96.
14 H. de Keyserling, *Journal de voyage d'un philosophe*, II, p. 103.

العربي، العالم الإسلامي، العالم الإسباني-الأميركي، العالم السلافي ألخ. . . أو بتعبير آخر وحدة حضارة.

«ينبغي التمييز ملياً بين الدول الحضارية والدول الإجتماعية. إن وحدة الحضارة لا تفترض بالضرورة الوحدة السياسية ولا حتى وجود تنظيم إجتماعي محدد بوضوح. إن ما ترينا إياه مرحلة ما قبل التاريخ أو، إذا جاز القول ما قبل اللغات والألسنية وعلى مساحات واسعة أنهم أناس متشابهون أكثر مما هم أناس متضامنون»[15].

وبالنتيجة فإن ما يؤلف أمة جغرافية أو تاريخية أساساً هو تجمع منظم من الأفراد المتشابهين نفسياً ارتضوا أن يعيشوا ويتعاونوا معاً، في إطار أرض معينة. وأما العناصر الخارجية (عرق، لغة، دين، تاريخ الخ. . .) والتي من شأنها ان تسهم في تكوين الوحدة القومية أو تدعيمها فهي ليست إلا عوامل ثانوية ومتغيرة، تتفاوت هي نفسها دائماً وفي كل مكان،بل إنها وتبعاً للبلدان أو العصور يتفوق تارة الواحد منها وطوراً الآخر.

إن الأمم الجغرافية أو التاريخية وكمزائج مستقرة من الأعراق والأديان والتقاليد بل وأحياناً من اللغات المختلفة، تشكل في مفهوم التاريخ والسياسة وعلم الإجتماع وحدات نفسية وحقائق حية وفرديات فاعلة،وإن هذه المجموعات المركبة هي علة أو صانعة الأحداث التاريخية أو هي من ضحاياها.

هكذا فإن فرنسا وإنكلترا وإسبانيا قد استمرت كلها ضمن أطرها الجغرافية والتاريخية محافظة على طبائعها الخاصة بها برغم التغييرات المتلاحقة التي طرأت على اللغة والدين والحياة الاجتماعية بفعل الغزوات المتعددة التي اجتاحت تلك البلدان عبر العصور. وعلى النقيض من ذلك، فإن الفرنسيين والأنكليز والاسبان الذين هاجروا جماعات فيما مضى إلى كندا أو أميركا الشمالية أو الجنوبية قد شكلوا في مختلف بلدان العالم الجديد مجموعات جغرافية وإثنية وسياسية خاصة بهم. ومع احتفاظها بلغتها ودين بلدها الأصلي، فإن هذه الأمم الجغرافية المختلفة، في القارة الأميركية هي من زاوية التاريخ والسياسة متميزة بوضوح الواحدة عن سواها كما أنها متميزة أيضاً عن الأمم الأوروبية التي انطلقت منها. وإن عملية الهجرة نفسها والتغيير الاثني إياه تكررا مراراً عديدة عبر العصور في بلدان الشرق الأدنى.

15 H. Berr, *En marge de l'histoire universelle*, p. 79.

٣ ـ الطبائع الفطرية أو الوراثية، عناصر أساسية ودائمة

أ ـ الطبائع الإثنية المميزة أو القومية

رأينا سابقاً أنه وفي اطار الطبائع الانسانية ينبغي التمييز بين فئتين من العناصر: الاولى فطرية وغريزية وهي وراثية والى حدّ ما دائمة، والثانية مكتسبة وخارجية (لغة، دين، حضارة الخ...) وهي ثانوية ومتقلبة. كما رأينا أيضاً أن ما يميز بشكل رئيسي المجموعات الجغرافية او الشعوب إنما هي العناصر النفسية للطبائع الفطرية أو الوراثية، والمؤهلات الروحية والخلقية وبشكل يفوق بكثير المميزات الخارجية أو القسمات الجسدية أو المحيط اللغوي أو الديني أو حتى الطاقات الفكرية.

«إن طبع إنسان ما من الناحية النفسية هو سمته الخاصة وهو ما يميزه بين الآخرين. في حين أن الفطنة أو الذكاء تميزنا قليلاً نسبياً... وعلى العكس... فنحن نختلف بعمق نسبياً من حيث الطاقة والاتجاه الغالب للإرادة،والميول والعواطف والرغبات. إن الجوهر ـ الأساس للطبع هو السليقة، «السجية» أي مجمل المواهب الفطرية للفرد وبالأخص استعداداته العملية والعاطفية (وهي عناصر وراثية) والتي تسبق التعديلات التي تطرأ عليه بتأثير من البيئة والاختبار والعادات (عناصر مكتسبة)... أما العلم فتأثيره على الطبع لا يُذكر ويظل طافياً على السطح»[١٦].

إن الطبائع النفسية الفطرية أو الوراثية وبرغم طبيعتها الباطنية أساساً،هي عموماً ذات اتصال وثيق ومنتظم بالطبائع الجسدية. في الواقع وغالب الأحيان تتجلى الخلقية في ملامح جسدية. وهكذا فإن السيماء أو المظهر على علاقة ثابتة بالطبع النفسي، فهي تعبر عن مواهب العقل والنفس. قسمات الوجه: الجبين، الأنف، الذقن، العينان إلخ... تزودنا بمعلومات أكيدة عن المشاعر والأفكار والصفات أو العيوب في طبع شخص ما.

إن الطبائع النفسية الفطرية أو الوراثية هي إذن إستعداد داخلي، و«تصرفات غريزية» وهي التي تشكل الروح الدائمة للشعوب. من تلك السجايا مثلاً: النشاط والحيوية، الارادة، الشجاعة، الميول، العواطف والأهواء وبكلمة واحدة كل المواهب والاستعدادات الفعالة والعاطفية في الانسان... إن هذه الطبائع الأساسية

16 H. Marion, «*Caractère*», *La Grande Encyclopédie*, 9, p. 268 et 270.

يمكنها أن تُوصف بالإثنية أو العرقية أو القومية وهي على نقيض الطبائع المكتسبة والخارجية والتي تُعرف بالطبائع الإثنوغرافية أو الاجتماعية.

ب ـ استمرارية الطبائع الفطرية أو الوراثية

إن الطبائع الفطرية أو الوراثية المفولبة والمستقرة بفعل البيئة الطبيعية التي تتمتع بأحوال ثابتة مبدئياً والمنتقلة عن طريق الوراثة هي طبائع دائمة نسبياً، وهي تدمغ بطابعها المستمر المجموعات الجغرافية أو الشعوب على امتداد تطورها التاريخي. في هذا الدور فإن عمل البيئة الجغرافية المقولب والمبوتق يؤيده علم الآثار ويؤكده التاريخ.

فالهياكل العظمية المنبوشة في أفريقيا الشرقية وأوستراليا وأميركا الشمالية والجنوبية تظهر شبهاً وثيقاً مع السكان الحاليين في تلك البلاد. ان المظهر العام لدى المصريين والاشوريين والحثيين القدامى، والمتجلي بمنحوتات أو رسوم على صروح ونصب تلك الشعوب لهو مشابه الى حد كبير، لشكل خلفائهم الحديثين[١٦].

ومن جهة أخرى فإن النصوص المصرية والاشورية-البابلية والتوراتية واليونانية تؤكد على أن الطبائع النفسية لدى مختلف شعوب الشرق الأدنى القديم، الحضرية منها والبدوية، تشبه في خطوطها وملامحها العريضة طبائع الشعوب التي تعيش اليوم في تلك البلدان. أما في أوروبا فإن قسمات وجوه الغاليين التي وصفها يوليوس قيصر والمميزات التي لاحظها تاسيت في الجرمان لا تزال ماثلة للعيان وبعد ألفي سنة لدى خلفائهم الحديثين: الفرنسيين والألمان.

ج ـ التغيير الموقت للطبائع الأساسية

إن رسوخ الطبائع الوراثية أو الاساسية مرتبط مبدئياً باستقرار الظروف التي أسهمت في تكوينها لذلك فان تلك الطبائع يمكن ان تتبدل استثنائياً،إما على أثر تغير في البيئة الجغرافية أو في اطار بقعة السكن نفسها عندما تختلط المجموعة البشرية بعناصر دخيلة. ومع ذلك ففي الحالتين فإن تأثير البيئة الجغرافية بقوته وثباته يعيد تدريجاً الطبائع المنقحة الى الطابع المتميز للسكان الأصليين.

وأما في ما يتعلق بالتغير الحاصل نتيجة امتزاج الأعراق فإن خاصية الهجين متوقفة على طبيعة ونسبة العناصر الممزوجة كما على أحوال البيئة التي سيعيش فيها وليد التهجين

17 Lester et Millot, *op. cit.*, p. 64, 67, 69.

هذا. وإذا توافرت هذه العوامل المتنوعة في منطقة ما بطريقة مختلفة، فسوف نرى نشوء تركيبات مختلفة في تلك المنطقة نفسها، وبالتالي شعوباً مختلفة وحتى أفراداً لهم طباع متناقضة.

وبرغم الصفة الموقتة لهذه التعديلات مبدئياً،فلا بد لنا من الملاحظة أن التطور الذي يعيد الخليط المعدَّل الى الدمغة الأصلية التي تحددها البيئة، يمكن غالباً أن يتأخر لأسباب أو أحداث طارئة تعدّل مجدداً في اتجاه أو آخر الطبع الذي نتفحصه. وفي بعض الأحيان أيضاً فإن ماضي عرق ما مهاجر يحتفظ نوعاً ما ولفترة زمنية طويلة نسبياً بدمغته الأصلية. «فالناس يأخذون معهم في هجراتهم الجماعية أو تنقلاتهم الفردية مشاهد داخلية وإن عناصر حياتهم النفسية هي عديدة إلى درجة لا تُحدّ»[18].

ومن جهة أخرى فإن استمرارية الطبع المغترب تتعلق بالأخص بطبيعة الطبع هذا. وهكذا فإن لون البشرة هو من جملة الميزات الجسدية التي تتعدل ببطء أشد. ومثل هذا يندرج أيضاً على شكل الرأس. إلا ان هذه الاستمرارية في الميزة الجسدية لا تحتم بالضرورة استمرارية الطبع النفسي. «فشكل الرأس أو دليله (نسبة عرض الرأس الى طوله مضروب بمائة)... لا معنى نفسياً أو اجتماعياً له على الاطلاق. ففي الجمجمة التي لا تتغير، يتغير الدماغ. فبعض الأفعال لها تأثير عليه وحده، وإن كانت نفسية الجماعات البشرية على علاقة بمثل تلك الميزات الجسدية إلا انها ليست مرتبطة بها. ومع مر الزمن فإن اللون يمكن ألا يعبر إلا عن ظروف زالت بقدر ما؛ وبرغم استمراره إلا أن ظروفاً جديدة فعلت فعلها الداخلي»[19].

وإلى كل هذا فإن بعض الميزات الجسدية التي على علاقة بالطبائع النفسية ليست بطيئة في تغيرها. وهكذا فإن السحنة أو السيماء التي تعبر عن مواهب الدماغ مركز الحياة النفسية تتعدل بسرعة أكبر من الجمجمة.

ومن المهم التذكير بأن الخلائط الإثنية تظهر غالباً وبالأخص في البدء كعامل تطور وتجديد شباب وتجدد. إن الحضارات القديمة في بلدان الشرق الأدنى، كما توسعاتها العسكرية والسياسية وإشراقها الثقافي تأتي عامة إثر تنقلات شعوب مصحوبة أو متبوعة باضطرابات اجتماعية ومزائج أعراق. وهو إياه واقع حضارات المصريين القدامى

18 H. Berr, *En marge de l'histoire universelle*, p. 68-69.
19 H. Berr, *En marge de l'histoire universelle*, p. 86-87.

والسومريين والأكاديين والبابليين والحثيين والأشوريين والكلدان والفرس والأغارقة والرومان والعرب إلخ...

إلا أن هذا التجدد الحياوي الناتج عن وجود دم جديد هو موقت عامةً. فخلال بضعة أجيال ـ بمعدل ثلاثة ـ فإن الفعل المنشط للتلقيح الغريب سرعان ما يزول وإن المزيج المركز يستعيد دورته النفسية السابقة، تماماً كما تحددها السجايا التأسلية (صفات الأسلاف) والبيئة المحيطة.

٤ ـ الطبائع المكتسبة أو الاجتماعية، عناصر ثقافية، خارجية ومتغيرة

أ ـ تأثير البيئة الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية

درسنا في الصفحات السابقة تأثير البيئة الطبيعية المباشر في تكوين الكائنات البشرية وتطويرها وتوجيه طبائعها الإثنية الأساسية، الفردية منها والجماعية.

وسندرس حالياً تأثير البيئة غير المباشر والذي يؤثر على الحياة والطبائع الاجتماعية بواسطة الأحداث الاقتصادية المكيفة مع الأحوال الطبيعية. نحن نعرف في الواقع أن أسلوب العيش الذي يهيئه المحيط وبالأخص طريقة العمل التي يؤمنها تخلق لدى الانسان إلتزامات وعادات ومؤهلات تنعكس على تطوره الاجتماعي وتكيّف طباعه الإثنوغرافية أو الاجتماعية.

ومن المهم التذكير بأن الطبائع الإثنوغرافية أو الاجتماعية، وعلى نقيض الطبائع الإثنية الفطرية أو الأساسية التي يحددها تأثير الأحوال الطبيعية المباشر والتي تكون وراثية ودائمة نسبياً، تشكل، بفعل تأثير البيئة غير المباشر عناصر مكتسبة وخارجية لا يمكن نقلها عن طريق الوراثة وهي عناصر متغيرة.

ب ـ المحيط الاقتصادي والاجتماعي

إن المنطقة الطبيعية أو التاريخية، بفعل النشاط الذي توفره، والمؤهلات الخاصة التي تسهم في تطويرها يتولد عنها إقتصاد إقليمي ينتج «نماذج إجتماعية» متخصصة ومحلية تؤثر في الجغرافية الإثنوغرافية، الاجتماعية والثقافية أي الحياة المادية والمعنوية للمجتمعات البشرية. ونحن نعرف أن تنوع البيئات الجغرافية يوفر للإنسان إمكانات عمل منوعة توجه تطوره الفردي والجماعي باتجاهات عدة وتشجع

على تفتح أنواع مختلفة من التأقلم البشري. ومع أن الملاحة غير مرتبطة حكماً بطبيعة الشواطىء البحرية، إلا أن هذه الشواطىء إما أن تسهلها أو تجعلها صعبة.

وفي مختلف هذه الأوساط الاقتصادية فإن الحاجة الى التعاون في الجدّ من أجل العيش تولد لدى الأفراد في المجموعة الجغرافية الواحدة «الغريزة الاجتماعية التي ينشأ منها التضامن الذي يجمع شيئاً فشيئاً «متشابهين» في اتحاد وثيق ودائم»[20].

إن هذه الحياة المشتركة التي تتطلب التخصص الفردي وتقسيم العمل تشيع بين «المشاركين» روح الجماعة وتحسساً اجتماعياً وشعوراً «قومياً». وهي تشيع أيضاً وحدة في التصرف وطريقة التحسس والعيش والعمل، تحدد الطبائع الإثنوغرافية أو الاجتماعية.

«لكن البيئة (الطبيعية) تمارس عملاً اجتماعياً أكثر مباشرة وهو عمل مزدوج: فبواسطة المناخ وطبيعة الأرض والتضاريس والمياه تؤثر على طريقة التجمع وكثافة السكان والحياة المادية وبالتالي على المؤسسات السياسية والتنظيم الاقتصادي»[21].

ج ـ المحيط الثقافي

إن تراكم الثروة التي يرتكز عليها التقدم البشري مرده إما إلى عمل الإنسان أو الى سخاء الطبيعة. وهذان العاملان الاقتصاديان على صلة بدورهما، الأول بالمناخ والثاني بخصوبة الارض.

في أفريقيا وآسية الجنوبية حيث تعمل الحرارة على خفض نشاط الانسان فإن العامل الأساسي للحضارة في العصور القديمة كان خصوبة الارض. وهكذا فإن الحضارة القديمة في تلك البقاع كانت مقتصرة على السهول والأودية الغنية وذات الطمى النهرية: مصر، بابل، الهند، الصين. ومن جهة ثانية ففي البلدان الحارة حيث المناخ يشجع على الكسل فإن العالم الخارجي وتأثيره هو المهيمن على تطور الحضارة: فالإنسان يميل الى الخضوع الى الطبيعة والرضوخ بسلبية لاستبداد السلطة.

وفي البلدان الباردة حيث المناخ ينمي النشاط والاستعداد لبذل الجهد وحب الاستقلال، فإن العمل هو العامل الأكثر أهمية في تقدم الحضارة: الإغريق وروما

20 H. Berr, *En marge de l'histoire universelle*, p. 108.
21 H. Berr, *La Synthèse en histoire*, p. 90.

القديمتان، أوروبا المعاصرة. ففي هذه البلدان حيث تكون تأثيرات الطبيعة ضعيفة نوعاً ما فإن الإنسان يستعيد الثقة بقدراته ويتفوق على القوى الطبيعية ويسخرها لصالحه.

وهكذا ومن زاوية إقتصادية وإجتماعية وثقافية فإن بعض البيئات الجغرافية منطلقةً من نوع الحياة الذي تساعد في تطويره توفر أنواعاً معينة من العيش. الصحراء، الجبل والسهل تؤمن نشاطاً واستعدادات خاصة بها أو تسهلها. إن الطرق البرية والبحرية الكبرى والمراكز الصناعية على وجه أخص والتي بفضل التجارة وحركة المواصلات والمبادلات قد طوّرت إقتصاديات تجارية أو صناعية، برية أو بحرية إلى جانب الاقتصاديات الزراعية، أدّت بالنتيجة الى قيام مجتمعات وحضارات متميز بعضها عن بعضها الآخر.

د ـ الطبائع المكتسبة أو الاجتماعية: اللغة، الدين، الحضارة الخ...

إن الطبائع المكتسبة أو الاجتماعية، التي تشمل اللغة والدين والحضارة والمؤسسات السياسية هي: العادات والتقاليد الاجتماعية، المعلومات المتخصصة، المؤهلات الخاصة، أنماط الحياة،وبوجه عام كل المظاهر المادية للذكاء والنشاط البشري، من غذاء وسكن ولباس وزينة، وأسلحة حربية وأدوات العمل في زمن السلم، ومن زراعات وصناعات ووسائل نقل وتجارة، أعياد واحتفالات دينية وفنون، إلخ.

وإذا كنا سلّمنا بأن الطاقات الذهنية والشعور الروحاني والحس الفني هي ميزات وراثية ودائمة فالأمر يختلف تماماً مع اللغة والمعتقدات والممارسات الدينية وأيضاً مع النتاج الفني. فهذه المظاهر الخارجية للفكر والحياة النفسية هي عناصر مكتسبة وغير قابلة للانتقال عن طريق الوراثة،كما أنها متغيرة.

وعلينا أيضاً ملاحظة أن اللغة والدين والثقافة، وبحكم طبيعتها السطحية، تتأثر في الوقت نفسه بالمحيط الاجتماعي وبالطبع الوراثي الذي قولبته البيئة الطبيعية. ذلك ان الشعوب في اعتمادها لغات وأديان وحضارات مستوردة إنما تميل إلى تكييفها وفقاً لنفسيتها الخاصة بها.

اللغة.ـ إن اللغة بالنسبة الى الفكر، والتي تُعدّ أداة للتعبير عنه، هي «كالشكل بالنسبة الى الجوهر». من جهة أخرى، «فاللغة والعرق ليسا تعبيرين متلازمين تماماً: فالأعراق تغير لغاتها في مجرى حياتها التاريخي المضطرب غالباً».

إلا أنه علينا الإقرار بأن هناك نوعاً من الترابط بين لغة شعب وحياته النفسية. هناك في الواقع لغات مجردة ولغات واقعية تستجيب الى عقليات إثنية متعارضة. «فالتطور اللغوي يخضع خضوعاً وثيقاً الى الظروف التاريخية: إنه يخضع لمكان السكن ونوع الحياة وتداخلات حياة الشعوب... الحياة والفكر يجريان في اللغة. اللغات الميتة هي كالمتحجرات التي تحفظ اثر الكائن الحيّ. أما اللغات الحيّة فتعبر بأشكال تتغير، لكن مسجلة في نصوص، عن كل الحركة الداخلية وكل التأثيرات الخارجية للحياة الفردية والجماعية»[٢٢].

لذا فالشعوب تعتمد لغات شقيقة ونسيبة للغتها بأيسر مما تعتمد اللغات التي ليست على صلة بحياتها النفسية. هكذا ففي الشرق القديم تعاقبت اللغات السامية أكثر من مرّة الواحدة تلو الأخرى. فاللغة السامية العربية، وهي الأخيرة تاريخاً، حلّت محل اللغة السامية ـ الآرامية، في سورية وما بين النهرين، والحامية ـ البربرية في مصر وأفريقيا الشمالية، في حين أنه، في هذه المنطقة بالذات فإن اللغات اليونانية واللاتينية والعثمانية أثبتت أنها، برغم قرون عدة من السيطرة السياسية، عاجزة عن التجذر بين السكان الأصليين.

الدين.ـ إن البيئة الجغرافية وخصوصاً المشاهد الطبيعية يبدو أنها تؤثر على الشعور الديني الذي هو طبع وراثي وأساسي، تأثيراً جوهرياً. هكذا، وكما أن القوى الطبيعية التي لا يمكن السيطرة عليها والتي تمنح الانسان شعوراً عميقاً بعجزه فإنها في الوقت نفسه تولد لديه ميلاً الى الاستسلام والرضوخ السلبي، كذلك فإن «المظاهر المخيفة في الطبيعة تشحذ المخيلة وتولّد الخرافات وتثبط المعرفة». فالشعور الروحاني يستمد جذوره العميقة من هذه الإنفعالات التقية والفردية المستوحاة في معظمها من ضعف الانسان حيال القوى الجبارة والغامضة في الكون والتي تشكل الروح الحيّة والخلاقة في الدين.

وأما المعتقدات والممارسات الدينية والتي لا تعبر إلا عن مظاهر خارجية ومتغيرة للشعور الديني، فهي في معظمها عناصر مكتسبة، والحصيلة المشتركة للبيئة الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وحتى السياسية.

في المناطق الخصبة من الشرق القديم، كانت الديانات البدائية تتميز في خطوطها العريضة بعبادة قوى الطبيعة المتمثلة بزوجين إلهين كبيرين يجسدان عناصر

22 H. Berr, *En marge de l'histoire universelle*, p. 49, 50, 62 et 63.

الخصب والدفق أو الغزارة. وكان لتنوع المناطق تأثيره على مظهر الإله الخاص بكل منها. ففي السهل المزروع كانوا يعبدون الثور أو النهر وفي الجبل،المرتفعات والمطر والرعد والعاصفة وفي الغابة: الوعل والشجرة إلخ...

إن هذه الديانة الطبيعية كانت أيضاً ديانة فينيقيا أو لبنان القديم حيث كان الجبل والأرز والأنهار والأعاصير موضع تكريم وعبادة. وفيما بعد، وضع الفينيقيون اهتماماتهم الزراعية في المرتبة الثانية لينصرفوا الى التجارة البحرية، عندها، أضافت كل آلهتهم رموزاً بحرية الى رموزها السابقة.

وأما لدى الساميين البدائيين في وسط الجزيرة العربية فكانت الأفكار حول الألوهة والعبادة موحىً بها من معيشتهم المتجولة وتنظيمهم الاجتماعي البدائي. ولما كان السامي البدوي يعيش في مناطق قاحلة فقد كان يتراءى له أنه محاط بأعداء سريين خفيين ومعادين من الكائنات النشطة التي لا تعرف باسم خاص بها تسكن الصحراء المجدبة. وفوق تلك الآلهة الثانوية والمجهولة الهوية فهناك الآلهة الحقيقية سادة الكون التي تتجلى في الكواكب والرياح والمياه والعالم الحيواني والنباتي في تلك السهوب.

هـ ـ الطبائع المكتسبة أو الاجتماعية ذات طبيعة خارجية وغير وراثية.

الطبيعة الخارجية. ـ إن الطبائع المكتسبة أو الاجتماعية هي «تصرفات ملقنة» منذ الولادة وهي «في معظمها تحددها الأحداث النفسية في الطفولة الأولى وأيضاً التقاليد العائلية أو الطائفية والطبقة الاجتماعية أو المتحد القومي إلخ... فكل المجتمع يضغط منذ الولادة بدهاء على الفرد ليقولبه وفقاً لهدف تقليدي معين»[٢٣].

ونظراً الى طبيعتها السطحية أساساً أو الخارجية فإن الطبائع المكتسبة أو الاجتماعية والخاصة بمجموعة جغرافية أو شعب يمكنها، ونكرر ذلك، ان تعتمد من قبل مجموعات بشرية أخرى تكون أصولها الإثنية وطبائعها الفطرية أو الأساسية مختلفة.

وهكذا ومع أن اللغة والشعور الديني مرتبطان بحياة الانسان النفسية، إلا أنه في أحيان كثيرة نرى لغة ما؛ فضلاً عن اعتقادات وممارسات دينية تُعتمد من جانب مجموعات من أعراق وطبائع مختلفة. وهذه الظاهرة يمكن تفسيرها بأن أقلية غربية عندما تجتاح بلداً ما وتسيطر عليه لا

23 Jean Rostand, *L'Homme, Introduction à l'étude de la biologie humaine,* p. 82 et 98.

بد أن تفرض في أغلب الأحيان على السكان الخاضعين لها لغتها ومعتقداتها وثقافتها ومؤسساتها وعاداتها الإجتماعية.

استحالة قابلية النقل عن طريق الوراثة.-إن الطبائع الاجتماعية وهي خارجية ومكتسبة منذ الطفولة لا يمكن نقلها بواسطة الوراثة. وبعبارة أخرى فالوراثة الاجتماعية لا تتحول الى وراثة عضوية. «كل ما هو مكتسب فينا يموت معنا.»

«إن تجارب عديدة، أجريت على حيوانات متنوعة، أثبتت بطريقة حازمة عدم قابلية نقل المكتسب. فالتغييرات التي يثيرها المحيط (الاجتماعي) أو حركة النشاط لا يمكن أبداً نقلها بالوراثة الى الذرية إذ أنها تظل حصراً فردية، وان استحالة نقل المكتسب سواء كان معنوياً أو جسدياً هو أحد التأكيدات الأكثر ثباتاً في العلم الحديث... فكل ما يضيفه الانسان في نفسه عن طريق المعرفة أو التفكير أو النظام يظل خارجياً عنه وسطحياً»[٢٤].

عَرَضية الحضارة. - إن الطبيعة السطحية وغير القابلة للوراثة، التي تتميز بها الطبائع الاجتماعية تفضي الى أن كل ما تعلمه الانسان وشعر به خلال أجيال لم ينطبع في دماغه. وأن الطرح الذي كان يتصور أن الحضارة على الصعيد الفكري والمعنوي نقّحت جوهر الانسان قد تم التخلي عنه اليوم تماماً.

«إن كل ملامح الانسان المتوحش والبربري مستمرة في الانسان المتمدن بأشكال مخففة الى حدّ ما وتشكل ما يمكننا أن نسميه الجانب التحتي للتاريخ. وإن هذا التاريخ يبدو لنا قياساً الى زمن قيام البشرية،كالحصيلة غير المضمونة دائماً للجهد العنيد الذي تقوم به عقول النخبة، أو كالازدهار الأقصى لبعض عناصر الثقافة (لغة، خط، تنظيم سياسي) والذي يمكن لأي ريح من البربرية كما يبدو أن تجففه بسهولة»[٢٥]. ولنذكر بالصفحة الشهيرة لبول فاليري حول الطبيعة «الفانية» للحضارات المعاصرة.

و - تحولية الطبائع الاجتماعية

إن الطبائع الاجتماعية بفعل طبيعتها الخارجية والمكتسبة وعدم قابلية انتقالها بالوراثة تتغير من حيث المبدأ تحت تأثير أيّ أسباب جديدة مختلفة عن تلك التي كانت قد صاغتها: فتح أو غزو أجنبي، ثورة إجتماعية،سياسية أو دينية، إختراعات علمية، تحولات اقتصادية، تقدم تكنولوجي إلخ...

24 J. Rostand, *op. cit.*, p. 100, 101, 122, 132.
25 Zaborowski, «Anthropologie», *La Grande Encyclopédie*, t. 3, p. 182.

ومن حيث المبدأ فإن التحول الكامل أو الجزئي للطبائع المكتسبة أو الاجتماعية، وعامة يتم بطريقة متناهية في التدرج، لا يؤدي حكماً الى تحول مترابط في الطبائع الإثنية الوراثية والأساسية التي تشكل روح الشعوب والتي تعد دائمة نسبياً. فإن مجموعة إثنية أو شعباً مع استمرارها هي هي بطبائعها الأساسية والمميزة وفي الإطار الجغرافي نفسه والتي تحولت طبائعها المكتسبة أو الاجتماعية خلال العصور تبدو نتيجة ذلك وحسب العهود تحت أشكال مختلفة على التوالي.

إن هذه التغييرات الظاهرة التي تطرأ غالباً على اللغة والدين والمؤسسات تجعل المراقب السطحي يعتقد، أنه في البلد الواحد وفي حقب معينة من تاريخه، أن عرقاً جديداً أو عائلة إثنية قد أزاحت أو أفنت العرق القديم وحلت مكانه. في الحقيقة ونعيد هذا، فإن المجموعة الجغرافية الواحدة (الشعب أو الأمة) وقد شهدت خضات ثم استقرت إثر امتزاجها أو احتكاكها بعناصر مهجنة فإنها مع ذلك حافظت على طبائعها الأصلية الأساسية التي بوتقتها البيئة الطبيعية أو استعادت تلك الطبائع. فهي فقط اعتمدت طبائع خارجية أو اجتماعية جديدة أي لغة أو ديناً أو ثقافة جديدة حملتها إليها أقلية من المجتاحين أو الفاتحين الغرباء والذين غالباً ما تمتصهم وتدمجهم مجموعة السكان الأصليين. وإن روح هؤلاء السكان الأصليين بقيت هي نفسها بالرغم من هذه التحولات الخارجية أو السطحية.

لقد رأينا بالفعل أن علم الآثار ومعطيات التاريخ تؤكد أن العناصر الأساسية للمميزات الجسدية والنفسية لدى الناس والشعوب القديمة تشبه في خطوطها العريضة طبائع الشعوب الحالية التي خلفتها في بلدان كل منها. وان هذه المسحة الغالبة استمرت عامة على مرّ العهود بالرغم من التغييرات المتتالية للغة والدين والحضارة وطرق الحياة والمؤسسات الناشئة بفعل الغزوات الغريبة المتعددة فضلاً عن المزج الإثني الذي تسببت به.

إن ديمومة هذه الطبائع الأساسية القديمة تظهر لدى الشعوب الحالية في الشرق العربي وآسية الصغرى التركية بالرغم من أن لغة أسلافهم البعيدين ودينهم استبدلا خلال التاريخ، بلغة الفاتحين العرب والأتراك،القادمين من شبه الجزيرة العربية وآسية الوسطى ودينهم،وهؤلاء يُعدّون أقل بكثير من عدد السكان الأصليين.

وهذا بدوره ينطبق على شعوب أوروبا وايران المعاصرة والتي بفضل لغاتها الحالية تعتبر من أصل آري أو هندو ـ أوروبي. ونحن نعرف فضلاً عن ذلك أن اللغات المسماة هندية ـ أوروبية أي اللغة اللاتينية والأنكلوسكسونية والجرمانية والسلافية والإيرانية

إلخ... هي متحدرة من لغات دخيلة حملها قديماً غزاة شماليون جاؤوا من سهوب روسيا السيبيرية واعتمدها السكان الأصليون، الا أن هؤلاء السكان، وهم ليسوا من أصل شمالي، احتفظوا بطبائعهم الإثنية الأصلية أو استعادوها.

II. الشرق الأدنى وعالم المتوسط
تسميات، مناطق وتقسيمات جغرافية

١ ـ الشرق الأدنى

ما من شيء أقل وضوحاً من تعابير الشرق الأدنى أو الأوسط والشرق أو المشرق وحسب. فهي تدل بخاصة على وجهة جغرافية حيال أوروبا التي تُسمى عادةً الغرب.

إن أول من إستخدم كلمة شرق كان اليونان والرومان لتسمية البلدان الآسيوية الواقعة في مواجهة شروق الشمس قياساً إلى اليونان وروما، كما أن كلمة أناضول التي تعني المشرق هي أيضاً من أصل يوناني.

وبمعنىً أشمل فكلمة شرق تنطبق بشكل عام على كل آسية الجنوبية من البحر المتوسط حتى المحيط الهادىء بما فيها مصر الأفريقية وآسية الصغرى الإيجية. وهذا القطاع الشاسع يقسم إعتباطياً إلى ثلاث مجموعات جغرافية كبرى تُسمى عادة: الشرق الأدنى والشرق الأوسط والشرق الأقصى. إن هذه الصفات الثلاث المضمومة إلى كلمة شرق هي على أي حال حديثة الابتكار والمناطق الثلاث التي تعنيها لا تحمل أية حدود معينة.

وكانت شركة أميركية تُعنى بشؤون الجغرافية قد اقترحت أخيراً لتحديده توزيعاً نعتبره مقبولاً، وعليه يمكننا أن نُجمل الشرق الأدنى بـ: مصر وفلسطين وسورية ولبنان وقبرص وبلاد ما بين النهرين وآسية الصغرى وإيران والصحارى العربية والجزيرة العربية. وأما في الشرق الأوسط فباكستان وأفغانستان والنيبال والهند وسيلان. وأخيراً في الشرق الأقصى: الصين ومنغوليا وكوريا واليابان والفليبين والهند الصينية وتايلند وبرمانيا وماليزيا وأندونيسيا.

فمساحة الشرق الأدنى إذن هي المنطقة التي تسميها الجغرافية التقليدية بآسية الغربية أو الأمامية يُضاف إليها مصر الأفريقية.

أ ـ الشرق الأدنى منطقة متوسطية

ان تقسيم العالم القديم تقليدياً إلى ثلاثة أجزاء رئيسية تُدعى قارات لهو تقسيم اصطلاحي. ومع أن أفريقيا، بفعل عزلتها النسبية تبدو وكأنها وحدة محددة، فالجزيرة العربية المصنفة في آسية هي من حيث شكلها الجيولوجي وتضاريسها ومناخها تُعدّ امتداداً للصحراء الأفريقية. من جهة أخرى، فأوروبا ليست سوى شبه جزيرة من آسية أو حسب قول بول فاليري: مجرد رأس آسيوي في منتهى الصغر. كما أنه لا يفصلها عن آسية إلا حدود مصطنعة. وبالنسبة إلى اليونانيين القدامى او الاغارقة كانت الأناضول جزءاً من أوروبا وكانت آسية تمتد حتى غرب النيل.

وفي الواقع فان العالم المأهول، كما يقول أ. كافنياك، مقسم إلى بضع مناطق مأهولة بالأعراق الكبرى التي تؤلف الجنس البشري. «فمنطقة حوض المتوسط، وطبقاً لأقدم المعلومات التاريخية، كان يسكنها أناس من العرق الأبيض. والمنطقة الثانية وهي المحيطة بالاوقيانوس الهندي فكان يقطنها عرق محدد هو العرق الأسود. وأما الثالثة، ومن غابر العصور أيضاً، فكانت أرض الصُفر (الصين، الهند الصينية، اليابان إلخ..). وأما أميركا، فإنها تشكل منطقة مستقلة... فهل كان سكانها القدامى يشكلون العرق الأحمر؟».

ويضيف كافنياك «ان هناك صلة واضحة بين وجود المناطق الكبرى التي ذكرناها وإقامة تلك الأعراق فيها أيّاً كانت أهمية التفاصيل غير المتطابقة والتغييرات الطارئة. وبالاجمال يمكننا إعتبار وجود تلك الأعراق الأربعة الكبرى وإقامتها في الأماكن المذكورة كثابتة يسجلها التاريخ. لذا ومن الزاوية الجغرافية ـ الانسانية فنحن لا نتردد في اعتبار الوحدة المتوسطية هي الطاغية على النظرة التقليدية للقارات الثلاث»[٢٦].

ويمضي كافنياك قائلاً: إن سكّنى العرق الأبيض تتوزع على ثلاث مناطق كبرى تتناسب وثلاثة أعراق فرعية بيضاء كبرى يعترف بها كل علماء السلالة وهي: الأعراق الفرعية المتوسطية والألبية والشمالية. وبرغم كل التنقلات التفصيلية، فإن

26 E. Cavaignac, *Histoire du Monde, Prolégomènes,* p. 277, 178, 281, 283, 285, 286 et p. 11.

هذه المساكن الثلاثة تظهر ثباتاً معيناً منذ أزمنة ما قبل التاريخ. والأعراق الفرعية التي كانت تسكنها موجودة بكثافة فيها حتى اليوم. فالعرق المتوسطي أو بالأحرى المتوسطي ـ الجنوبي يمتد من الهندوستان حتى المحيط الأطلسي. والعرق الألبي يقيم في منطقة التعرجات الجبلية الحديثة التي تمتد من بامير إلى جبال البيرينيه. وأما الموطن الأول للعرق الشمالي فنحو روسيا ودول البلطيق[٢٧].

ويقابل هذه المجموعات العرقية الثلاث مجموعات لغوية ثلاث، نعود إليها لاحقاً وهي اللغات السامية ـ البربرية في الجنوب واللغات الهندو ـ أوروبية في الشمال ولغات غير سامية وغير هندو ـ أوروبية في الوسط.

وبحكم موقعها وتضاريسها ومناخها فإن كل بلدان الشرق الأدنى سواء الواقعة منها على حوض المتوسط (مصر، سورية، آسية الصغرى) أو تلك المنفصلة عنه (بلاد ما بين النهرين، إيران، الجزيرة العربية) كلها تتجه نحو عالم المتوسط أكثر مما تتجه نحو العالم الآسيوي.

«وهكذا يكون منذ ما قبل عصر التاريخ،شرق متعارف عليه، يظهر لنا كوحدة متكاملة حيث أننا نرى من جهة منطقة ما بين النهرين لها علاقات مع منطقة حوض المتوسط (سورية والاناضول) ومع مصر أكثر بكثير مما لها مع الهند أو الصين. ومن جهة أخرى نرى إيران برغم إشرافها على الهندوس من أعالي الأودية الافغانية فهي تنظر وتتدرج بشكل أفضل من قمم جبال زاغروس نحو بابل أو بغداد»[٢٨].

وأما الهضبة العربية المنحنية نحو الشمال والشمال الغربي فكانت الأراضي المزروعة في سورية وبلاد ما بين النهرين ومصر محط أنظار سكانها الرُحّل بشكل دائم. وهكذا نرى تاريخ الجزيرة العربية، باستثناء اليمن ربما، مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بتلك البلدان.

وهكذا يكون الشرق الأدنى منطقة متوسطية متصلة بقارات عدة،وعالماً وسيطاً بين كتلة القارة الآسيوية الكبيرة من جهة، وأوروبا وعالم المتوسط وأفريقيا من جهة ثانية.

27 E. Cavaignac, *op. cit.*, p. 279.

28 R. Grousset, *Histoire de l'Asie*, p. 9.

ب ـ الشرق الأدنى الجنوبي أو المتوسطي، والشرق الأدنى الشمالي أو الآسيوي.

إن الجغرافية التقليدية تقسم القارة الآسيوية الى قطاعات أرضية عدة. فقطاع الشرق الأدنى ينطبق، كما أسلفنا، على المنطقة المسماة آسية الغربية أو آسية الأمامية أو المواجهة، وإليها يجب إضافة مصر الأفريقية نظراً لإرتباط تاريخها وجغرافيتها بفلسطين وسورية.

ومع أن آسية الغربية بأكملها أقل مساحة من السهل السيبيري أو آسية العليا، إلا أن المناطق والمناطق الفرعية التي تشكلها تظهر كلٌ منها على حِدَة تفرداً ملحوظاً. حتى إن التاريخ والجغرافية يُجمعان على تصنيفها في قطاعات فرعية عدة، تؤلف كل منها وحدة جغرافية متفردة إلى حدٍّ ما.

إن مجمل هذه المناطق يمكن أولاً تقسيمه إلى مجموعتين تختلفان من حيث خطوط العرض والارتفاع وهي: (١) ـ مجموعة شمالية مؤلفة من أراضٍ مرتفعة يمكن تسميتها الشرق الأدنى الآسيوي أو شرق أدنى الهضبات (آسية الصغرى، أرمينيا، إيران). (٢) ـ مجموعة جنوبية مؤلفة من أراضٍ منخفضة وصحارى وهي: الشرق الأدنى المتوسطي أو شرق السهول والواحات، ويشمل بلاد ما بين النهرين وسورية والجزيرة العربية ومصر. وهذا الشرق الأدنى الجنوبي هو الشرق المتوسطي بحد ذاته، الشرق المتعارف عليه أو القديم أو الشرق العربي في عصرنا الحاضر.

ج ـ الشرق المتوسطي وأفريقيا الشمالية

إن الشرق المتوسطي يشكل، بإتصاله بآسية وأفريقيا، عالماً مستقلاً تفصله عن الشرق الأدنى الشمالي أو الآسيوي جبال زاغروس وطوروس، كما إنه يتميز عنه أيضاً بكل وجوه المزايا الناجمة عن البنية الجغرافية والتضاريس والمناخ.

إن ظروف البنية الجغرافية والتضاريس والمناخ تجعل الشرق المتوسطي أكثر قربى لأفريقيا الشمالية منه لآسية كونه جيولوجياً مكملاً لها. ومن هنا، فالشرق المتوسطي أو شرق الواحات هو أفريقي أكثر مما هو آسيوي، وله كقاعدة مشتركة وإطار، هضبة واحدة هي امتداد لهضبة الصحراء الأفريقية.

إن هذا العالم الشرقي ـ الأفريقي، الثنائي الوجه يحاذي في الواقع منطقة صحراوية شاسعة، هي الصحراء الأفريقية والصحراء العربية ـ السورية، والممتدة من المحيط الأطلسي

حتى الخليج العربي. وبانحصاره بين هذا المحيط من الرمال والمتوسطين الشرقي والغربي، فإن العالم الشرقي ـ الأفريقي يشكل شريطاً طويلاً من الأراضي حيث تتوزع مناطق زراعية وتفصلها غالباً صحارى. هذه المناطق الواحات هي: بلاد ما بين النهرين، سورية، مصر، القيروان أو ليبيا، أفريقيا الشمالية أو أفريقيا الصغرى.

وفضلاً عن وحدة البنية الجغرافية وتشابه المناخ والتضاريس، فإن هذا العالم الشرقي ـ الأفريقي يحوي في مجمله نباتات هي نفسها تقريباً. وهذه النباتات متوسطية على الشاطىء، وتتحول تدريجاً نحو الداخل إلى نباتات سهبية فصحراوية كلما ابتعدنا عن البحر.

ومنذ مطلع العصر النيوليتي، والتقلبات المناخية تعمل على نشر الجفاف في الشرق كما في أفريقيا الشمالية، وهو جفاف قائم حتى يومنا هذا. إن هذا الجفاف الذي ظل آخذاً في التصاعد منذ ذلك الحين هو السبب الاساسي في انتقال الحضارة الحديثة التي كان الشرق المتوسطي موئلها الأول بإتجاه أوروبا. معلوم في الواقع، أنه وخلال عصور ما قبل التاريخ، كان الشرق والجزيرة العربية وأفريقيا أكثر رطوبة، وكانت تتلقى أمطاراً أكثر غزارة.

لذا فإن ما يقارب اليوم بين سكان الشرق المتوسطي وسكان شمال أفريقيا ليس اللغة العربية الواحدة أو الدين الاسلامي بقدر ما هي الظروف الجغرافية والإثنوغرافية المتشابهة: البنية الجغرافية، التضاريس، المناخ، النبات والاقتصاد وبخاصة تعايش مجتمعين متناقضين: الحضر والبدو.

هكذا، ومنذ عصور ما قبل التاريخ، ظل هذا العالم الشرقي ـ الأفريقي الموقع المفضل والأرض المختارة لهذا الجزء من العرق الأبيض أي الأسرة المتوسطية الجنوبية السامية ـ الحامية أو السامية ـ البربرية ذات اللغات المتقاربة. وتعاقبت موجات التوسع السامية في الألف الرابع والثالث والثاني لتغطي بلاد ما بين النهرين وسورية. واما في مصر، فإن الساميين المهاجرين إليها في الألف الرابع قبل الميلاد والذين اختلطوا بالحاميين الليبيين شكلوا شعب ما قبل التاريخ في دلتا النيل. وأما في الألف الأول قبل المسيح، فقد سيطر ساميون من لبنان، عُرفوا بالفينيقيين، على أفريقيا الشمالية وجعلوها سامية بعدما فرضوا عليها لغتهم وحضارتهم التي ترسخت في تلك المناطق وقاومت وصمدت في وجه انتشار الحضارة الرومانية. ولم تتوارَ إلا بعد دخول ثقافة شقيقة ومشابهة هي ثقافة الساميين العرب بعد انتشار الاسلام.

٢ ـ العالم المتوسطي

في غرب الشرق الأدنى وفي جواره المباشر تمتد منطقة العالم المتوسطي، هذا العالم الخاص الذي يضم الجزء الغربي من الشرق الأدنى بأكمله، والذي كان له، بدءاً من العام ١٠٠٠ ق.م.، تأثير رئيسي على مصير الشرق الأدنى، لا يزال حتى اليوم.

فللوهلة الأولى تظهر لنا الخارطة الجغرافية أن منطقة البحر المتوسط مقسمة إلى حوضين كبيرين: الحوض الشرقي والحوض الغربي. وأما في الواقع، كما رأينا، فالبنية والمناخ والتضاريس تقسم هذه المنطقة إلى قطاعين كبيرين: القطاع الجنوبي والقطاع الشمالي. وان الشرق الأدنى المتوسطي ينتمي إلى القطاع الجنوبي، في حين أن الشرق الأدنى الآسيوي، وبخاصة آسية الصغرى، ينتمي إلى القطاع الشمالي، وبينهما تبدو شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال) وكأنها غريبة عنهما.

أ ـ البقعة الجغرافية للعالم المتوسطي

إن البقعة الجغرافية للعالم المتوسطي، بما فيها البحار والأراضي معاً، تشكل مساحة نحو ستة ملايين كيلومتر مربع تقريباً: ثلاثة ملايين للمتوسط والبحر الأسود، ونحو ثلاثة ملايين لمجمل الأراضي التابعة للمناخ المتوسطي. وعلى عكس الشرق الأدنى الجنوبي المتمحور حول صحارى كبرى، فإن العالم المتوسطي مركز حول بحر داخلي أو قاري. فالمنطقة المتوسطية هي بالفعل تلك المجموعة من البلدان المؤلفة من سواحل وجزر وشبه جزر وسهول وتلال وجبال تزنر المتوسط. بر وبحر: هذا هو العالم المتوسطي. بر وصحراء: هذا هو الشرق الأدنى.

وتماماً مثل مصر التي تمتد طولاً أكثر منها عرضاً على طول مجرى النيل الذي يخصبها ويفيدها كخط مواصلات داخلي،هكذا تمتد المنطقة المتوسطية حول المتوسط الذي يصل مناطقها المختلفة بعضها ببعض. وأيضاً كما الصحراء، قلب الشرق الأدنى الجنوبي، هي قطاع البدوي المواكب للقوافل والوسيط بين المناطق المجاورة هكذا البحر، قلب العالم المتوسطي، هو قطاع بدوي آخر هو البحّار الذي يمخر البحر ويجمع بين البلدان القائمة على ضفافه.

تلك هي المظاهر الخاصة بالشرق الأدنى الجنوبي والعالم المتوسطي وكلاهما عالمان متباينان، إلا أنهما متكاملان، وقد نشأ وتطور حولهما اقتصادان وحضارتان متميزتان، وإنما متجاورتان وحتى نسيبتان.

البحر ودوره. ـ يبلغ طول البحر المتوسط ٣٨٠٠ كيلومتر بعرض أقصى هو ٧٥٠ كيلومتراً. وهذا الحوض الكبير يمنح الأراضي المحيطة به وحدة مناخية واقتصادية أكيدة. إن هذا البحر وهو طريق اتصال بين الشرق والغرب والشمال والجنوب ليس بحيرة مغلقة بل هو طريق رئيسية وعالمية: إحدى أشهر طرق المواصلات البحرية في العالم.

إن عزل هذا البحر عن القارات المحيطة به بسبب الجبال والصحارى لا يمنع اتصاله بداخل هذه القارات عبر انخفاضات أو أودية أو طرقات. فمن الشرق هناك النيل والبحر الأحمر وطرقات الصحراء والانخفاضات عبر جبال لبنان، والتي تفتح منافذ عدة أمام أفريقيا الشرقية وآسية الجنوبية والوسطى.

الأرض ومواردها. ـ إن البحر المتوسط هو مركز الثقل بالنسبة للبلدان المجاورة له، وإن هذه الأراضي مؤلفة من شواطىء وجبال. فمن جبال سيرت حتى الحدود الفلسطينية تمتد الصحراء، باستثناء دلتا النيل، حتى البحر. وفي كل مكان آخر تشكل الجبال أسواراً تفصل بين الشاطىء وداخل البلاد. إن المناطق المتوسطية تظهر تضاريس معقدة: شواطىء متعرجة، سهول معدودة فضلاً عن وحدات صغيرة مبعثرة.

إن النباتات الثلاث التي يتميز بها المتوسط هي: القمح والكرمة والزيتون. أما الحرش المتوسطي ففقير نظراً لفقر الأرض. في الجبل ثمة زراعات أخرى ومناخ آخر ونمط حياة آخر.

المناخ المتوسطي. ـ «هناك مناخ متوسطي عندما تكون هناك صحراء أو منطقة صحراوية حارة إلى جانب محيط معتدل»[٢٩]. إن هذا المناخ، الذي أقامه الجغرافيون مثالاً، ينجم عن الفعل ورد الفعل الناتج عن الصحراء والبحر. وهو بدوره يهيىء ظروفاً اقتصادية واجتماعية خاصة أي حضارة متوسطية.

شتاء لطيف وفصول انتقالية قصيرة وصيف حار وجاف وسماء مشعة وغالباً صافية: تلك هي الميزات العامة للمناخ المتوسطي. هذا المناخ ونمط الحياة التي يحددها هما على درجات متفاوتة تبعاً لقرب أو بُعد أي مكان عن البحر والصحراء. المناخ المتوسطي يتجلى على الشاطىء إلا إذا التقت الصحراء بالبحر.

29 A. Siegfried, *Vue générale de la Méditerranée*, p. 36.

وما بين المناخات المعتدلة والمناخات الصحراوية سلسلة من المناخات الوسيطة تختلف كلما ابتعدنا عن البحر أو الصحراء. وأبعد من المناخ محض المتوسطي ثمة مناخ جبلي أيضاً. «وعندما لا يعود هناك جبال ولا صحارى عندها يعمل تلاقي الرياح على رسم الحدود: فالهواء السائد يؤدي عند ذاك إلى سلسلة نتائج بما فيها السياسة نفسها. وبالرغم من هذه التفاصيل فإن وحدة المناخ المتوسطي أكيدة، وفيها ينبغي البحث عن العنصر المحدد للفردية المتوسطية»[٣٠].

تأثير الظروف الطبيعية.ـ إن وحدة مناخ المنطقة المتوسطية تتجلى في إقتصادها الزراعي. فالجفاف يستدعي تنظيم الري. وهذه الزراعة المكيفة مع بيئة جغرافية فقيرة تتطلب الدقة والحيطة والمهارة، وهو عمل حرفي أكثر مما هو عمل مزارع، أو كما يقول فيدال دي لابلاش، فالحديقة، وليس الحقل في هذه الحال هي لولب الحياة الحضرية.

فالملّاك الصغير المتوسطي، وعلى عكس الأميركي الذي يرفض رسم حدود لحاجاته، يخصص جهده وعنايته اليومية لملكيته الصغيرة. فبساطة مأكله، الذي يعوض عنه الخمرة وزيته وأشجاره المثمرة وسماؤه الرائعة، تفسح لفكره البقاء بمقدار أكبر من الحرية. إلا أن مثل هذه الحضارة تبقى مزعزعة. فالجلالي والقنوات لجر المياه وتصريفها تستلزم صيانةً وحمايةً مستمرة. وأي مرحلة طويلة من الجفاف أو من الاضطرابات قد تقضي على الأرض الخصبة.

وبالرغم من أن البحر يعمل على توحيدها، تبقى المنطقة المتوسطية، وبسبب تضاريسها المنغلقة، متميزة أبداً بتفتت سياسي بارز. إن الحياة المدينية زادت في مختلف مناطقها حالة الشعور بالفردية والخصوصية المميزة. فالطبيعة متناقضة بذلك مع رتابة سهول أوروبا الشمالية وروسيا أو آسية وأميركا، وتدفع الدول المتوسطية إلى تشكيل وحدات جغرافية وتاريخية صغيرة ومتعددة، وهي نادراً ما تعزلها عن بعضها بعضاً لتبقي على علاقاتها لكنها تفصلها بما فيه الكفاية كي تحتفظ بفرادتها حتى اليوم.

وأما البحر الذي يجمع فيما بينها فكان على الدوام الطريق الكبيرة للحضارة والثروة وفي أغلب الأحيان للسلطة. لذا حاولت الدول القارية وشعوب الشواطىء دوماً السيطرة على البحر والمرافىء. وإذا كانت حياة الجمهوريات البحرية قصيرة دوماً

30 A. Siegfried, *op. cit.* p. 43.

فذلك يعود إلى عدم قدرة أراضيها الضيقة نسبياً والمرتادة بكثرة على صدّ مطامح الدول القارية القوية. فكريت وفينيقيا وقرطاجة واليونان وبيزنطية كلها انهزمت أمام شعوب قارية في حين أن الرومان نجحوا باستمرار لأنهم شعوب أرضية. وهذا يندرج على العرب والأتراك الذين حلّوا محل البيزنطيين في السيادة على الشرق الأدنى.

ب ـ الحضارة المتوسطية.

إن حضارة المجتمعات المتوسطية التي بوتقتها الجغرافية تختلف بميزاتها العامة عن حضارات وادي النيل أو الفرات وعن حضارات آسية وأفريقيا وأوروبا وأميركا المعاصرة.

ففي مصر، كما في بابل ـ يقول أ. لودفيغ ـ «فإن غياب المطر فرض الري الاصطناعي وأوجد بالتالي جماعات متضامنة دافعت عن نفسها ضد البدو، وقد أدى ذلك إلى نشوء المركزية والحكم الفردي والاستبدادية. أما في المتوسط، فقد أدى توافر المطر إلى الصناعات الفردية والإستقلالية والحرية وأيضاً إلى نشوء الأحزاب السياسية. وهذا ما يشكل أول فارق بين الشرق والمتوسط. وأما الفارق الثاني فهو الملاحة البحرية نفسها».

ويلاحظ أ. سيغفريد ببراعة «أن ازدهار الحضارات المتوسطية منوط بعهد الآلة الفردية وهي أداة العمل الفردي أو على الأقل، العمل الذي تؤديه مجموعة أشخاص قليلة نسبياً. وإن الآلة أدخلت إلى العالم منذ نحو قرن مفهوماً جديداً للإنتاج مبنياً على القوة المحركة المجرورة... وليس مؤكداً أن المتوسط، وفي هذا العصر الجديد للانسانية الذي بدأ لتوه، يتمتع بالمركز المناسب ليلعب الدور الذي لعبه في الماضي... إن مناطق وقارات أخرى مهيأة أكثر للإنتاج الأوفر وللعمل الجماعي من منطقة البحر المتوسط التي هي منطقة التفرد والعمل اليدوي[٣١].

ج ـ الماضي والحاضر.

إن تأثير الظروف الطبيعية يتجلى في تاريخ العالم المتوسطي. فعلى شواطىء هذا البحر الداخلي ولدت ونمت أرقى أشكال الحياة الخلقية والإجتماعية: الحضارات المصرية والفينيقية والمابينهرية واليونانية والرومانية والعربية والديانات الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام. وقد حقق الفينيقيون في الألف الأول ق.م. الوحدة

31 A. Siegfried, *op. cit.*, p. 79-80.

الاقتصادية لعالم المتوسط. والحضارة اليونانية التي ولدت بفعل انصهار حضارات كريت وميسينيا والشرق وتجددت بالعبقرية اليونانية أوجدت الوحدة الفكرية للمتوسط. أما الرومان أخيراً فقد كوّنوا في هذه المنطقة وحدة سياسية سرعان ما تهدمت إثر سقوط الأمبراطورية الرومانية الغربية واندثرت ولم يقم لها قائم حتى اليوم.

إن تدهور الاقتصاد المتوسطي، الذي بدأ مع سقوط القسطنطينية واستيلاء الأتراك عليها (١٤٥٣)، ازداد حدّةً إثر اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح العام ١٤٩٧ م. وقد أتاح هذا الاكتشاف لأساطيل أوروبا أن تبلغ الهند في دورة حول أفريقيا وأن تتخلى عن المتوسط فأصبح بحيرة شبه مهجورة. وأما المرافىء المتوسطية فقد عزلت لتحل محلها مرافىء البرتغال وانكلترا وهولندا. وفقدت أسواق دمشق والقاهرة وبغداد حِكر العبور البري. وهذا الانتقال بحركة التجارة من البحر المتوسط الى المحيط الأطلسي ازداد حدّة إثر اكتشاف الأميركتين وتطور الحياة الصناعية في أوروبا. وأما المناطق المتوسطية وقد حافظت على اقتصادها الزراعي والحِرَفي فبدت كبلدان متخلفة في نظر الغرب. وهكذا غدت الأمبراطوريات الشرقية القديمة والعظيمة دولاً ثانوية، وباتت معها المناطق الغنية التي تعيش فيهاخرائب أثرية أكثر مما هي مدن نشطة ومزدهرة.

لكن الحدث الرئيسي الذي وضع حدّاً لجمود العالم المتوسطي هو معاودة الاتصال بين آسية وأوروبا عبر شق قناة السويس (١٨٦٩ م.)، فعادت الطريق البحرية القديمة بين الشرق والغرب وعززها اختراع المحرك البخاري. إلا أن المناطق المتوسطية لم تَستَعد دورها وازدهارها القديمين. فهي لا تزال تهمل الصناعة وتبقى متمسكة بالزراعة، وما برحت الهيمنة الاقتصادية بيد الدول الصناعية الغربية. وأما المتوسط المنبعث من رقاده فهو ممر للتحركات العالمية أكثر مما هو هدف، وقد أفادت القناة دول الأطلسي أكثر مما أفادت دول المتوسط.

غير أن الحربين العالميتين الكبيرتين أعادتا لحوض المتوسط الشرقي أهميته الاستراتيجية في يومنا هذا. كما ان نفط الشرق الأدنى، فضلاً عن التقدم الحاصل في وسائل المواصلات البرية والجوية، أعاد إلى شواطىء الشرق المتوسطي وإلى دوله الداخلية جزءاً من دورها كطرق تجارية وممرات عبور لتجارة الترانزيت.

III. مناطق الشرق الادنى المتوسطي:
بلاد ما بين النهرين، مصر، الصحراء السورية ـ العربية

١ ـ خطوط عامة

إن الشرق الأدنى المتوسطي أو الجنوبي، على نقيض الشرق الأدنى الآسيوي أو الشمالي المؤلف من ثلاث هضاب صحراوية عالية مُسوَّرة بجبال مرتفعة موجهة من الشرق إلى الغرب، فهو يتألف من ثلاث واحات غنية محاطة بالصحارى وموجهة من الشمال إلى الجنوب وهي: بلاد ما بين النهرين وسورية، بمفهومها الواسع، ومصر. وهذه البلدان المثلثة الواحات كونها تقع عند نقاط تقاطع القارات القديمة الثلاث تشكل ملتقى العالم القديم؛ آسية، أوروبا وأفريقيا وهي لا يتصل بعضها بالبعض الآخر براً إلا بواسطتها.

وإلى شرق وجنوب هذه البلدان الثلاثة تمتد الصحراء السورية العربية الواسعة التي تجوبها قبائل البـدو. أما في الشمال فتقوم جبال وهضبات إيران وأرمينيا والأناضول والتي يعيش فيها جبليون شرسون متمرسون في الحياة شبه البدوية. وفي الغرب يمتد البحر المتوسط. وهذه المعطيات الجغرافية، ناهيك بتلك الناشئة عن وضعها بين القارات الثلاث، تحكمت دائماً بالمصائر التاريخية لبلدان الشرق المتوسطي.

٢ ـ الصحراء السورية ـ العربية

تنحصر شبه الجزيرة العربية الشاسعة والصحراوية كالاسفين بين قارتي أفريقيا وآسية أو بتعبير أدق بين البحر الأحمر ومصر من جهة والخليج العربي وإيران من جهة أخرى. وهذه الصحراء الواسعة التي تشكل امتداداً للصحراء الأفريقية هي الإطار الأساسي الذي حدد الميزات الطبيعية للشرق المتوسطي. إن هذه الكتلة، التي تبلغ

مساحتها أكثر من ثلاثة ملايين كيلومتر مربع أي ربع مساحة أوروبا، تؤلف وحدها قارة صغيرة أو أفريقيا صغرى. وعلى امتداد خليج العقبة حتى الخليج العربي فإن الجزء الجنوبي من هذه المنطقة الصحراوية محاط عند حدوده البحرية بسلسلة متصلة من الجبال العالية.

وعلى خلاف الهضبات الايرانية والأناضولية المحاطة بمناطق جبلية مأهولة، فإن هذه الهضبة الواسعة لا توفر سوى بضع مناطق خصبة موزعة على الأطراف وضيقة نسبياً وهي: منخفض بلاد ما بين النهرين، والأراضي السورية المرتفعة شمالاً ونَجْد والحجاز واليمن وسطاً وجنوباً.

وكما ان مصر والقيروان (ليبيا) وأفريقيا الشمالية، لا تقاس حيال ضخامة الصحراء الأفريقية فإن بلاد ما بين النهرين وسورية والحجاز واليمن لا تقاس أيضاً حيال الصحراء العربية التي تشكل وسطها الجغرافي. بل ان هذه الصحراء التي تحتل قلب الشرق الحقيقي تجعل منه منطقة تفتقر إلى الوحدة البديهية. وإن المسافة المأهولة الموزعة على جوانبها هي أقل بكثير من مناطقها القاحلة. فالمنعزلات الصحراوية تجزىء كل المناطق الشرقية: إنها تحيط بضفتي النيل وتغمر شبه الجزيرة العربية وتفصل بلاد ما بين النهرين عن سورية كما تفصل هذه الأخيرة عن مصر وتبعد اليمن أو العربية السعيدة مديرة إياها شطر المحيط الهندي.

وإذا كانت الهضبة العربية لم تعرف تقريباً أبداً الوحدة السياسية على غرار الهضبات الإيرانية والأناضولية فلأن مراكز حياتها، التي تعزل الواحد عن الآخر فراغات شاسعة، موجودة كلها على الأطراف وهي تقع تحت تأثير البلدان المجاورة.

هكذا تكونت ثلاثة تجمعات جغرافية على أطراف شبه الجزيرة الشاسعة وكأنها وليدة فعل قوة نابذة ضخمة. وهذه التجمعات موجهة في ثلاثة اتجاهات مختلفة. فالواجهة السورية أو المتوسطية تطل على البحر المتوسط والغرب؛ وواجهة بلاد ما بين النهرين تطل على إيران وآسية؛ وواجهة الجزيرة العربية الجنوبية، تدير ظهرها طائين الواجهتين متطلعةً إلى أفريقيا والهند.

وهذا العائق الهائل المتمثل بالصحراء حال دوماً دون أية محاولة لتوحيد العالم الشرقي وحوّل كل مسعى من هذا النوع إلى سراب[٣٢].

(٣٢) سوف نرى لاحقاً، تأثير الأحوال الطبيعية القائمة في الصحراء العربية على المجموعات البشرية التي تسكنها أو تجاورها.

أ ـ الهلال الخصيب

إن سورية وبلاد ما بين النهرين، هاتين الواحتين اللتين تتوّجان من الشمال الصحراء السورية ـ العربية، ترسمان معاً حول تلك المنطقة الشاسعة القاحلة والموحشة برزخاً من الأراضي الخصبة على شكل قوس واسع أو حدوة حصان من الأراضي الزراعية المرسومة بطريقة غير منتظمة من الخليج العربي إلى البحر الأحمر والذي سُمّي لهذا السبب بالهلال الخصيب. إن أول من أطلق هذه التسمية الحديثة كان عالم الأشوريات السيد كلاي، وهي اليوم تتداول بكثرة. وإن طرفي هذا الهلال الضخم يلتقيان في الشمال عند منطقة الفرات العليا والعاصي أي بلاد نهارينا القديمة أو بلاد الأنهار.

٣ ـ بلاد ما بين النهرين أو بلاد الرافدين

إن منطقة بلاد ما بين النهرين المؤلفة من أودية وسهول يرويها نهرا دجلة والفرات هي الطريق الكبيرة التي تصل آسية الصغرى وسورية بإيران والخليج العربي. ونظراً إلى أنها محاطة بالصحارى من الجنوب، وبالجبال من الشمال، فإنها تشكل بفضل موقعهاءالمحور الأساسي للحركة التجارية في آسية الغربية، وكانت منذ القدم محط أنظار الفاتحين والشعوب المتنقلة.

تنقسم منطقة بلاد ما بين النهرين إلى جزئين كبيرين: الأول شمالي أو منطقة ما بين النهرين العليا، وهو مؤلف من سهوب وجبال، والآخر جنوبي أو منطقة ما بين النهرين السفلى، وهو مؤلف من سهول غرينية: وإلى هاتين المنطقتين المتنوعتين لا بد من أن نضيف في شرق دجلة هضبة عربستان أو خوذستان الحالية وهي سوزيان أو بلاد عيلام القديمة والتي رغم كونها إيرانية إلا أنها تشارك في تاريخ بلاد ما بين النهرين.

إن منطقة بلاد ما بين النهرين العليا (بلاد أشور القديمة، الجزيرة والموصل حالياً) والمعتصرة بين جبال كردستان والفرات هي منطقة سهوب تشكل امتداداً لهضاب سورية الشمالية، وتتألف من سلسلة جبال، تبلغ في علوها ألف متر أو ما يزيد، وسهوب أو سهول زراعية. إنها منطقة جامعة لنوعي الحياة الحضرية والبدوية معاً وهي الطريق القديمة الكبيرة التي تربط البحر المتوسط ببابل.

وأما اليوم فمعظم سكانها من الأكراد وبعض العرب في الجنوب. وفي هذا البلد شبه الخالي حالياً كانت تتجاور في الماضي مدن متعادية على كل مساحته. إن

التلال تغطي اليوم هذه العواصم المندثرة وهي نينوى وأشور وماري، وقد كانت حقل معارك كبيراً بين روما ضد البارتيين، وروما ضد الفرس، وبيزنطية ضد الخلفاء.

وأما منطقة بلاد ما بين النهرين السفلى (بابل وكلده القديمتين أو العراق العربي حالياً) فهي دلتا واسعة طولها ٦٠٠ كيلومتر وعرضها ٢٠٠ كيلومتر أحدثها الطمي المنقول بواسطة كل من دجلة والفرات وقارون وكيرها. وكانت كل هذه الأنهار تصب في الماضي في الخليج العربي مباشرة. وكان للفرات ودجلة اللذين ينحدران من جبال أرمينيا مصبّان منفصلان، وفي وقت من الأوقات كان يبعد الواحد عن الآخر منهما نحو ٨٠ كيلومتراً، وكان الخليج العربي يدخل في اليابسة مسافة أبعد شمالاً. ويظهر من التدقيق أنه وفي الألف الثالث قبل المسيح، كان الشاطىء على مسافة أبعد بنحو ٢٠٠ كيلومتر مما هو حالياً. وإن كل هذه الأرض المكتسبة ناجمة عن الطمي النهري الذي حملته الأنهار طوال العصور. ولهذا السبب نجد اليوم وعلى بُعد ١٥٠ كيلومتراً من شاطىء الخليج آثار مدن قديمة كانت في الماضي مرافىء بحرية.

إن الظروف المناخية في بابل كما في مصر تتطلب إنشاء نظام ري واسع لتنمية البلاد. وقد كان سومريو ما قبل التاريخ في الألف الرابع ق.م.، هم أول من أنجز هذا العمل البارع. وأما اليوم«فإن هذه البلاد لم تعد مزروعة إلا بنسبة واحد على عشرين فقط أي إنها تمر تماماً في الحالة التي انتشلها منها الكلدان القدامى... فضفتا شط العرب ليستا إلا بستان نخيل شاسعا، إذ هناك ١٨ مليون شجرة نخيل على جوانب الضفتين مقابل ١٢ مليوناً فقط في سائر العراق كله»[٣٣]

إن الظروف الطبيعية، فضلاً عن الوضع الجغرافي لمنطقتي بلاد ما بين النهرين، قد عملت دوماً على جعل مصيرهما مختلفاً. فإذا كانت منطقة ما بين النهرين الجنوبية قد أقامت حضارة قديمة العهد استطاعت أن تنتشر شمالاً فما ذلك إلا بفضل نشاط سكانها التجاري والبحري. بفضل قربهم من البحر وسيطرتهم التامة على الملاحة في النهرين على السواء، نجح السومريون الأوائل في بناء حضارتهم المتقدمة.

لكن دجلة والفرات، فضلاً عن كونهما طرقاً كبرى للتجارة الدولية، كانا أيضاً درباً تقليدياً للغزاة. وإذا كانا في الغالب سبباً في إغناء سكان بلاد ما بين النهرين، إلا أنهما جلبا مرّات عديدة الدمار إلى هؤلاء السكان وحضاراتهم.

33 R. Blanchard, *Géographie Universelle*, VIII: *Asie Occidentale*, p. 227 228.

كانت شعوب بلاد ما بين النهرين القديمة مؤلفة من تجار ومحاربين شجعان وذوي حمية على فظاظة، وكانوا مضطرين للدفاع عن الثروات التي تكدسها بلادهم بقوة السلاح. «كانوا واقعيين، لم يراودهم الحلم أبداً، ولم يكن للشماكل الخلقية في حياتهم إلا دور ثانوي»[٣٤].

٤ ـ مصر أو وادى النيل

تبلغ مساحة الأراضي المصرية، بما فيها الوادي والدلتا والسهوب، مليون كيلومتر مربع، لكن الجزء الصالح للسكن والزراعة منها لا يتعدى ٣٠,٠٠٠ كيلومتر مربع، وأما الباقي فصحراء.

فمصر هي واحة حقيقية تحققت بفضل مرور نهر النيل فيها، إنها هبة النيل. وهو النهر الإستوائي والأفريقي الوحيد الذي نجح في عبور الصحراء الأفريقية والوصول إلى البحر المتوسط قاطعاً بذلك مسافة بطول ٦٥٠٠ كيلومتر.

أ ـ مصر العليا ومصر السفلى: الوادي والدلتا

تضم مصر على غرار منطقة بلاد ما بين النهرين منطقتين جغرافيتين مختلفتين هما الوادي أو مصر العليا، والدلتا أو مصر السفلى، ويطلق عليهما أيضاً الشمال والجنوب. وأما طولهما معاً انطلاقاً من أول شلال حتى البحر فـ ١٠٠٠ كيلومتر.

منطقة الوادي التي هي منخفضة بطبيعتها ومنحصرة بين ضفاف صخرية، تقتصر على مجرى النهر فقط ولا تتجاوز في أقصى عرضها ٢٠ كيلومتراً على الضفتين معاً. وأما الدلتا، التي تشبه دلتا بلاد ما بين النهرين، فتنجم عن تراجع البحر أمام تراكم الطمي الذي يجرفه النهر منذ آلاف السنين ويفرغه عند مصبّه. وهذا السهل المائي يبلغ طوله ١٠٠ كيلومتر ودائرته ٦٠٠ كيلومتر.

إن الصحراء الأفريقية، التي تؤمن رمالها المجال الأمني لمصر، تمتد شرقاً حتى فلسطين. وأما برزخ السويس الصحراوي فيفصل بين الدلتا وآسية، وفي الغرب تمتد الصحراء الليبية حتى اللانهاية: إنها حقاً أرض الموت أو الحدود التي لا تُخرق. وأما

34 J. Pirenne, *La civilisation sumérienne*, p. 11.

من جهة الجنوب فتحمي مصر مساحات صحراوية شاسعة، ناهيك بحاجز شلالات النيل.

كانت مصر القديمة، على العموم، دولة قارية، وكان سكانها مستقرين وقليلي الترحال. إن الصحارى الأفريقية، حيث منابع المياه والمراعي نادرة، والواحات فقيرة ومبعثرة، لا تساعد على وجود قبائل كبرى مقاتلة وناهبة كتلك التي تجوب مشارف بلاد ما بين النهرين وسورية. فضلاً عن أن وسائل النقل لدى البدو الأفارقة لم تكن دائماً متوفرة: فهم لم يستغلوا الجمل قبل الفتح الروماني. لذا كان البدو الأفارقة ضعفاء حيال حَضَرِ وادي النيل. وأما البدو الوحيدون الذين عانى منهم المصريون فكانوا يأتون من فلسطين أو سيناء.

من هنا، وعلى نقيض سائر البلدان الشرقية، فإن مصر تشكل منطقة طبيعية ومعزولة يعيش فيها سكان متجانسون ومسالمون ومزارعون، وقد بوتقهم الإطار الجغرافي المثالي، وهم يتعاطون الزراعة والتجارة الداخلية منذ أكثر من ١٠,٠٠٠ سنة. والفلاح المصري اليوم هو خلف الحامي النيلي وفلاح العصور الفرعونية بكل ما يتمتع سلفه من ميزات جسدية وخلقية. وقد لاحظ فولني كم هو طريف الشبه القائم بين وجه أبي الهول ووجه المصري العادي اليوم. فوادي النيل هو البوتقة الممتازة التي تنصهر فيها الأعراق والعناصر الأكثر تنوعاً، والتي تطبع سكانها بطابع وادي النيل.

ب ـ مقارنة بين وادي النيل ووادي الفرات ـ دجلة

إن كلاً من وادي النيل ووادي الفرات ـ دجلة هو حصيلة أنهار كبرى تنبع من الخارج، وكلاهما يتألف من سهول ودلتا يمدها الطمي بالخصب، فضلاً عن أنهما يجمعان منطقتين ستباينتين من حيث الظروف الطبيعية والمناخ: مصر العليا والسفلى، وبلاد ما بين النهرين العليا والسفلى.

إن الصراع الدائم القائم بين سكان ضفاف تلك الأنهار والطبيعة لمقاومة الفيضانات، وكذلك بناء القنوات والسدود وتنظيم الري وتحديد الأراضي، كلها عوامل استوجبت في مصر، كما في بلاد ما بين النهرين، إنشاء تنظيم يتطلب بالضرورة الجهد الجماعي والنظام المتفق عليه واحترام السلطة الملكية والمطلقة

مدخل الى تاريخ الشرق الأدنى

العوامل الطبيعية والاثنية والتاريخية:
بلدان، أعراق وشعوب.